القصائد

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

* * *

العدد الرابع للسنة الحادية عشرة من مجلة الاداب عدد « القضية » في اطار القصيد .. قضيتنا نحن في احدى مراحل المد الثوري ، فان يكن وعينا بها داخل هذه الحدود متوقفا على عمليات الجس والاقتحام فلا أقل من أن نضع المعالم على الطريق حتى نمنع القلق من أن يستبد بالنفوس ، ولا يكون ثمة مجال أمام ذوي الاهداف القاصرة لان يزعموا ان الفن في واد وثورتنا الاجتماعية في واد آخر .

وحينما نتأمل ما حدث في الاعوام العشرة او الاحد عشر الماضية يظهر لنا ـ نحن المشتغلين بالادب ـ ان المجتمعين يسبقوننا ، بينما نحاول ان نثبت بجملة من الشعارات أننا على الدرب ، وان الفجر آت ، وأن الارض سنغسلها من أعداء الانسان !

وشيء كهذا خليق بأن يبعث الاسى ، الا ان الوعي المقصور على مجرد تقييم الهتاف لا يفيد . لان من بيننا من مهد للمد الثوري فعلا ، ومنا من سار معه في الطريق المقرر .

واليوم ، في هذا العدد الرابع من آداب السنة الحادية عشرة .. نحاول أن نحاسب أنفسنا ـ كمشتغلين بالادب ـ على ما قدمنا وعلى ما نستطيع ان نقدم ، دون ان نغفل عن ان النماذج التي بين أيدينا ليست مما يمثل حقيقة ادبنا في هذه المرحلة الخطيرة وان تكن احدى صوره .

ويمكن ان نجعل هذه النماذج ـ بالنظر اليها كموضوعات للقضية ـ في قسمين ، احدهما وهو الاطول خاص بالعراق ، والاخر خاص بسوريا على الرغم من أن منها من كتب للعراق كما كتب له من بيروت والكويت والقاهرة ، هذا بالاضافة الى ست قصائد غنى اصحابها على وتر غير هذا الوتر .

وأبدأ بقصائد العراق على ان احملها على انها تأكيد للجوهر البطولي الذي تقوم عليه حياة الانسان العربي . ومن اجل الصلة بين كفاحه وبين تلك الحقبة التي سيطر عليها « قاسم » كان لا بد ان أتحرى ان يكون الانفعال والفكرة وتنفيذ الفكرة شيئا واحدا ، وهذا ما ظهر في قصيدة « أغنية للثورة » و « أربع قصائد للعراق » و « بحيرة الصموت » . على ان هذه جميعا تبقى بعد ذلك متعرضة للنثرية الصاخبة ، من حيث اعتبار كل ما عوق « العراقي » مجرد تأهب للوثبة الكبيرة .

وهنا تطالعني « بحيرة الصموت » احدى الصرخات الحارة التي تؤثر عن علي الحلي . وهو لا يقف فيها عند حد الانفعال بل يندفع مأخوذا بتحرر « الفورمه » نحو جعل الموقف نوعا من الاصرار على الحياة .. برغم العفونه والرعاف والدود والعنكبوت والصديد ! فقد ثار ثورة كاملة على ما يسفحه العبيد في أديرة « الصنم » ، بل يمكن أن نزعم انه ثار ضد جميع النظم التي كان من الممكن ان يصنعها قاسم في عصارة الغروب وفوت الضجر (هذه عبارات الشاعر) ولكننا من الصعب ان نتخيله أقل من عاجز عن ان يدق على باب الفجر ليولد البعث أو يموت الليل الرهيب . ومن ثم كانت نظرته في هذه القصيدة محدودة لا نتقبلها من وجهة نظر اجتماعية معينة ، ومع ذلك فلها قيمتها باعتبارها علاجا رمزيا لقضية الحرية . وعلى ضوء هذا الفهم نراها لوحة تأثيرية ترسم لنا الليل الذي يستقر في البحيرة ويغور في حشائش الرمال ويبدو كالقدر الاصم في مضاجع السكون (هي عباراته أيضا) .

والصعوبات التي تقابل القارىء في القصيدة مصدرها ـ الى حد كبير ـ تزاحم الصور التي يحشدها في لحظة اندفاعه ، بحيث تبدو كما لو انها تتدفق في تيار مضطرب .

ويقذف هذا التدفق بالشاعر من شواطىء النهار الى « هواجس » الضياع على نحو ما يقفز محمود حسن اسماعيل ـ الشاعر المصري ـ من شباك العذاب الى مرافىء الربيع .. سلسلة سفوح وقمم تتتابع في عنف شاق !

غير اني للاسف لا اعتقد ان هذا التخطيط كاف لفهم الحلي ـ وهو شاعر أصيل ـ بل ربما كان من الجرأة ان أصف قصيدته بأنها « سيمفونية » تتذوق على نحو متكامل ويصعب فهم تفصيلاتها . وليس معنى هذا ضعف الرؤية الشعرية عنده ، بل بالعكس فهي حادة جدا وعارمة جدا وان تكن ثمة زوبعة تثير بيننا وبينها الظلام .

وأما الشاعران الاخران « محمد عمران » و « عبد الكريم الناعم » فقد أعجبا بالرؤى الرمزية على نحو لا يمكن تفسيره الا بمراعاة الانكماش الذي نجم عن ضغط قاسم . الا انهما لم يكتفيا بما وقف عنده الحلي ، فقد وجدا الباب الذي نفذا منه .

وهذه هي الحال الشعورية التي دفعت بالبعض الى الهتاف ، وأول هؤلاء محمد جميل شلش ثم جميل حسن فصبحي سلامة . فكأنما فرحوا حين اهتدوا الى المنفذ فصرخوا صراخ الصغار ، بينما ظل الحلي عند النقطة التي ربطه بها قاسم يفلسف موقفه وكان أن نجا ـ الى حد كبير ـ مما تورط فيه غيره .

ولاقطع هذا الاستطراد لاعود الى الشاعرين ، وهنا تحضرني « أربع قصائد للعراق » للشاعر الاول منهما ، واذا هي للعجب العاجب محاولة نغمية واضحة لقصيدة الحلي ، وان لم تخل من الظلمة في بعض نواحيها .. فموقف صاحبها من القضية انما هو موقف القاص ، ويرسم لنا عن طريق « الحكاية » صورة التفتح في مقاطع شعرية

كان من الممكن ان يستغني عن المقطع الرابع او القصيدة الرابعة بعنوان « أجراس البعث » .

ومثل هذا الضرب من القصيد ينتهي بنهاية الموقف القلق لكل قصة انفعاليه ، ولكننا نتساءل : هل هذا وحده سر تفوق محمد عمران ؟ لا شك ان القصة التحليلية لها أثرها القوي في تقريب القصيدة الينا . ولكن وضع القصيدة في هذه الزاوية معناه وضع التجربة الشعرية تحت سلطان خارجي عنها ، فتكون القصة نفسها مبعث الرضى . غير أن الامر في الحقيقة ان هذا الشاعر وهو يصور الظلام كان دائما يبدده دون ان نحس بهتافية عارمة تصدنا عن الوصول معه الى الموصل آن آذار يعود اليها !

ومن الواضح ان عبد الكريم الناعم يحذو حذوه، غير انه فيما يبدو رأى ان يكون أكثر التصاقا بالحكاية . فكأنه يرى ان من الممكن الاستغناء بها عن التحليل ، ومن ثم جاءت قصيدته « أغنية للثورة » وعاء فكريا ذا أبعاد قصصية عميقة . ومن الصعب بعد ذلك ان نتصور شاعرا عراقيا — في هذا العدد من الاداب — وصل الى ابعد مما وصل اليه هو في هذا النموذج الحلو من الشعر . ولهذا كان من الطبيعي ان اقول انه — فنيا — لا يقل تفوقا عن عمران والحلي ، بل قد يفضلهما . ذلك انه بدلا من ان يغرق في الرمز فقط ، وبدلا من ان يقتصر على الوصف ، وبدلا من ان يهمل اسماء حقيقية وأدوارا وقعت .. بدلا من كل ذلك يندفع في « واقعية » الى فجر البعث ، وثمة فجر دائما !

* * *

وأنتقل الى قصائد اربع قيلت لسوريا ، وهي على الترتيب « كلمات في اخر الليل » و « رسالة الى سوريا » و « رحلة العربي » و « اغنية الى بردى » . وكم في هذه من أمور وأمور ، الا ان أهم أمر فيها وقوعها تحت طائلة السرعة باستثناء الاولى وقد كتبها علي كنعان من جامعة دمشق .. مهد الثورة ، ومعقل الاحرار !

واذا كنت أرى ان الفن طاقة وجدانية قد لا ترتكز على فلسفة ما وان جاز أن تتأثر بالفلسفة ، وقد لا تقترن بالعمل وان تكن تثير عليه في صورة ما .. اذا كنت أرى ذلك فانني سأطل اعتبر قصيدة كنعان افضل قصائد العدد بشرط ان اسقط منها هذا الهتاف الذي حشده تحت عنوان « آذار والبعث » ولا سيما المقطع الاخير .

وعلى هذا تصبح القصيدة في نظري نشيدين أحدهما بعنوان « كاليغولا » والاخر بعنوان « نبوءة الدم » والعلاقة بينهما ينم عليها الظل الاسود الذي يندلح في اتئاد . وتلعب فيه شخصيات اسطورية او تشبه ان تكون أسطورية الدور الاول .. فكاليغولا الذي يقابل هولاكو عند من غنوا للعراق، ونيرون ، وأخيل ، وهيلين .. كل هؤلاء يرسمون معالم المأساة ثم يضع حدا لها الطلاب والعمال والاطفال .

هؤلاء رموز الغد !

هؤلاء الذين لم يستطع الطاغية ان يسكتهم ، فمثلوا البعث الفعلي ، بل كانوا أجنة الايجاد الموعود . وكثيرا ما يمتد بطش الباطش ويهتك ويخرب ويعصب على العيون، الا ان هؤلاء — وحدهم — ظلوا لا يؤمنون بالخرافة التي تقول :

لا اله
يهب الناس الحياه
ويذيق الموت الا كاليغولا
فارهبوه
ارهبوه !

ومن الطبيعي الا احاول ان أسأل ماذا جمع بين هيلين وكاليغولا ، اذ لا شأن للاسطورة بالمنطقيات ، كما انه لا شأن لي بمحاسبة الشاعر بما يدخل في نطاق الحقيقة التاريخية . اذ ما أسهل ان يقال هنا ان هيلين لم تعد ان تكون رمزا لسوريا التي نزف عرضها في ظل حكم يملك مقاليده رجل مثل كاليغولا .

وأما القصائد الثلاث الباقية فلا تخلو من عيوب ظاهرة .. فأغنية الى بردى على رقتها تضيع في سطحية التجربة ، ورسالة الى سوريا تنقصها الرؤية الشعرية ثم تنال منها هنات عروضية ، ورحلة العربي بغض النظر عن استعمال صاحبها « التم » بمعنى « اجتمع » تضعفها النثرية التي تعتبر آفة القصيدة المعاصرة . فضلا عن ان صلة البطولة بالفارس « السري » ثم باللغة الحبلى أوضح ما تكون في ذهن الشاعر نفسه ، ولكنها انبتت في الشعارات

ـ التتمة على الصفحة ٧٩ ـ

صدر حديثاً

للدكتور جورج حنا

بطبعة جديدة

قبل الغيب

تجارب وذكريات من حياتي

الثمن ٥ ليرات او ما يعادلها

يطلب هذا الكتاب مع عموم الكتب العربية من دار الثقافة - ص.ب ٥٤٣ - تلفون ٢٣٠٥٦١ - بيروت
ومن مكتبة دار الثقافة - ساحة رياض الصلح بيروت . ومن مكتبة الجامعة - شارع بلس .
تلفون ٢٩١٩١٥ - بيروت . ومن عموم المكتبات في العالم العربي .
فهرس الدار وفهرس مؤسسة فرنكلين يرسل مجاناً لمن يطلبه

قرأت العدد الماضي من الاداب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

المتناثرة بين الاغاني العربية والريح البدوية وسفر الابدية الـــخ ...

وأخيرا الى القصائد الاخرى .. هاته التي لم تعرض للقضية ومئات وجدان الجماعة في تصويرها الشخصيـــة أكثر مما هي تعبر عن الموقف! ان أرق هذه القصائـــد « سونيت خامسة » التي هزج بها من بغداد عبد الستار الدليمي ، وأعمقها « الصمت » التي غنى بها فاروق شوشة، وأبسطها « أغنية لم تتم » لملك عبد العزيز.

وتعتبر قضيدة « ماجد حكواتي » امتدادا لقصائـد الحزن التي حمل لواءها صلاح عبد الصبور .

وأما قصيدة فدوى طوقان فثورة فكرية أكثر منها ثورة عاطفية ، وان حفلت بالندب والولولة .

على أن هذه الاحكام في شمولها لا تكشف عن أعماق

هؤلاء الشعراء بصفة قاطعة .. فقدوى مثلا لا تزال الدفقة الساخنة الدامعة . وشوشة صادق الحس يقظ الـــى التجربة في أبعادها الداخلية ، ورفيق خوري صـــاحب « خواطر في العام الجديد » جريء في تصيد الكلمة مـــن أي قاموس!

الا انني لاحظت أنهم جميعا يمتازون بسيطرتهم على الالفاظ سيطرة مدهشة .. حتى رفيق الذي يتكلم عـــن أنهار الويسكي والفترينات الحبلى ـ وفي الشعر المعاصر يحبل كل شيء ـ يبدو كما لو انه ملك يحرك عبيده الالفاظ كما يشاء . وليس معنى ذلك انه واياهم يمتلكون أطنانـــا من الكلمات ، وانما معناه انهم يحسون بطاقة لغتهم عـــلى بلورة مشاعرهم في أقرب لفظ وأسهله .

والمعروف ان الشاعر عادة لا يدرك حقيقة السبـــب الذي يجعله يؤثر لفظة على لفظة ، ولكنه يؤمن بعد ان يفرغ من قصيدته أن ما صدر عنه كان يحتم عليه اختيار مـــا اختاره من الالفاظ .. وهذا سر صدقه ، ثم هو سر صدق فدوى وشوشة وملك ومن لف لفهم .

وانه لمن المهم جدا ان نتعرف على عمق الدوافـــع التي تتحكم في استخدام كل شاعر لالفاظه . واذ ذاك ، بل اذ ذاك فقط نفهم لماذا قلنا ان ماجد حكواتي امتداد لقصائد الحزن ، وان فاروق شوشة يقظ الى التجربة في أبعادها الداخلية ، وهكذا ...

ومع ما قد يكون فيما نقصده من اطاله لا طائـــل وراءها فانني أسأل على سبيل المثال : هل كنا نفهم شوشة لو أنه لم يلجأ الى الظنون والجدار والرداء والازار والوهم والملال والشجون والظلال .. في صور تنساب كلها في تيار واحد اسمه الصمت ؟

ودعنا من فدوى .. فهي قد تخدعنا عن طـــريق الدراسة السطحية لالفاظها ، الا ان عباراتها تظل النتـــاج المباشر للطريقة التي تقبلت بها فاجعتها .

ويفسر لنا هذا استحالة التزييف في هذا النوع مـــن الشعر ، فقد وقع الكذب في شعر القسمين السابقـــين . ولكنه عند اصحاب هذا النوع يصعب الى حد يدعو الى الدهش حقا ! وبعبارة اخرى نقول انه بينما نرى واحـــدا كفاروق شوشة يعجز عن التمويه يتقدم عشرات الى شعر الموقف أو الى شعر القضية بجرأة يحسدون عليها ويلعب التمويه بالشعارات ما يلعبه الممثل الكبير.

والى هنا أو عند هذا الحد أقف .. لاني أشعـــر بأني بينت أين وقف الموقفيون ، وكيـــف عجزوا عن ان يتخلصوا مما يتخلص منه الاخرون .

القاهرة — **أحمد كمال زكي**

مكتبـــة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا

احدث المطبـــوعات العـــربية ، وكـــذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .